عبقرية المتنبي

- ١٤ -

اما أهاجي المتنبيّ فتارةً كان يهجر فيها ويفحش ، فمن هذا الشكل قوله :

وقد أرى الخنزير اني مدحته ولو علموا قد كان يهجى بما يطري

ومنه قوله :

ابالنتن قد قيدتني بمواعد مخافة نظم للفؤاد مروّع
وقد ّرت من فرط الجهالة انني اقيم على كذب رصيف مصنع
اقيم على عبد خصي منافق لئيم رديء الفعل للجود مدّع

او كقصيدته في ضبّة ، فلا تخرج هذه الأهاجي عما يتشاتم به عامة القوم فقد كان ابو الطيب يباده بها مبادهة دون ان يغطيها باغطية رفيقة تستر شيئاً من سوء القول ولم ينج من هذه الشتائم حي ولا ميت واذا كان الطعن في الميت لا يعدّ من مكارم الأخلاق فالمتنبي لم يتعفف عن هذا الطعن :

ان مات مات بلا فقد ولا اسف او عاش عاش بلا خلق ولا خلق
منه تعلّم عبد شقّ هامته خون الصديق ودس الغدر في الملق
وحلف الف يمين غير صادقة مطرودة ككعوب الرمح في نسق

وتارةً كان يتهكم في اهاجيه تهكماً امرّ من القذع والفحش والتهكم في الهجاء اشد إيلاماً من السب والشتم واقتل للخصم ، فمنه قوله في كافور :

من علّم الاسود المخصى مكرمة أقومه البيض ام اباؤه الصيد

ومنه قوله :

من اية الطرق يأتي مثلك الكرم اين المحاجم يا كافور والجلم

ومن هذا الشكل :

ومصر لعمري اهل كل عجيبة ولا مثل ذا المخصي "اعجوبة بكرا
يُعدّ اذا عدّ العجائب اوّلا كما يبتدا في العد بالاصبع الصغرى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلا شك في ان هذا الضرب من الهجاء أعف من كلمات الخنزير والمنافق واللئيم وما شابهها من كلام العامة فهو اشد ايجاعاً وأرفع شأناً .

واذا لم يراع المتنبي حرمة كافور في هجائه اياه فقد راعى هذه الحرمة في تعريضه بسيف الدولة فكان هذا التعريض اثر نفس ثائرة على من تحبه يتنازعها عاملان : عامل الاغضاء على الاذى وعامل التشفي من الغيظ ولكن التشفي غلب في خاتمة الامر على الاغضاء فعرّض المتنبي بتنغيص سيف الدولة وبمنته دون ان يشتمل هذا التعريض على شيء من شتائم السوقة .

واذا انتقلنا من هذه النواحي كلها : نواحي الغزل والبكاء والهجاء الى آفاق المدح والوصف والحكمة تبين لنا ان عبقرية المتنبي ارتفعت في هذه الآفاق الى سماء اعلى وصبغت بصباغ خاص .

اول هذه المذاهب مذهب المدح على ان هذا المذهب لايخلو من بعض المساوئ ، من جملتها تكرار المعاني في طائفة من مدائح المتنبي ، والغلو في بعض مدحه ، واللجوء الى صفات تكاد تكون عامة ليس عليها شيء من رونق الجدة والطرافة .

اما تكرار المعاني فمثل مدائح ابي الطيب في هذا التكرار كمثل رواسيم يطبع بها الشاعر اي ممدوح شاء حتى لانكاد نجد فرقاً كبيراً بين ممدوحيه .

فمن هذا النوع وصفه لطبيعة كرم بعض ممدوحيه وهو المشطب الذي قال فيه :

يعطي فلا مطلة يكدرها بهـا ولا منّة ينكّدها

فلم تكن هذه الصفة خاصة بالمشطب فقد طبع بها المتنبي سيف الدولة فقال له :

انت الجواد بلا منٍ ولا كدر ولا مطال ولا وعد ولا مذل

ومن هذا التكرار وصفه للشجاعة فقد قال في الكلابي المنجبي :

لما رأوه وخيل النصر مقبلة والحرب غير عوان أسلموا الحللا

وهذا القول او مايقرب منه قاله في سيف الدولة :

فلما رأوه وحده قبل جيشه دروا ان كل العالمين فضول

ومن هذا الشكل قوله في المنجبي :

وضاقت الارض حتى كان هاربهم اذا رأى غير شيء ظنه رجلا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذا القول او مايشاكله قاله في سيف الدولة :

فكلما حملت عذراء عندهم فانها حملت بالسبي والجمل

والشواهد على وحدة المعاني في بعض مدائح ابي الطيب كثيرة ، فمنها قوله في ابي المنتصر الأزدي :

أمريد مثل محمد في عصرنا لا تبلنا بطلاب ما لا يلحق
لم يخلق الرحمن مثل محمد احداً وظني انه لا يخلق

ولكن الرحمن خلق مثل محمد وهو سيف الدولة الذي قال فيه المتنبي :

ومن علي بن عبد الله معرفتي يحمله من كعبد الله او كعلي

نعم الشواهد على وحدة المعاني كثيرة وآخر ما اذكره منها هذا البيت الذي قاله المتنبي في جعفر بن كيغلغ :

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن اعوذ به مما أحاذره

وهذا الشيء ذاته قاله في الطرسوسي :

يا من نلوذ من الزمان بظله ابداً ونطرد باسمه ابليسا

ولست أحاول الاستقصاء في هذا الباب وانما رغبت في ذكر انماط من اماديح المتنبي استدلالاً بها على وحدة المعاني في طائفة من هذه الاماديح ، فلم يكن للمتنبي في مدح بعض ممدوحيه صور خاصة اي لم يصل ابوالطيب الى اعماق الممدوح حتى يستخرج منها صورة خاصة بهذا الممدوح تناسبه ولا تناسب غيره من الممدوحين .

فلنجاوز هذا العيب الى غيره من عيوب مدائح المتنبي ، من هذه العيوب الغلو في وصف الممدوح :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما اتى الظلمات صرن شموسا
او كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى
او كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
او كان للنيران ضوء جبينه عبدت فكان العالمون مجوسا

فهذا ضرب من المدح خارج عن الاعتدال حتى ليكاد يكون مبتذلا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن هذه العيوب ورود المتنبيّ في بعض مدائحه موارد مشتركة يردها ويصدر عنها كثير من الشعراء ، منها قوله :

يفني الكلام ولا يحيط بفضلكم

ومنها :

من كل ابيض وضاح عمامته ... كأنما اشتملت نوراً على قبس

ولكن هذه السيئات قد تشفع لها حسنات المتنبي الكثيرة في مدحه التي انفرد بها فلا يجاريه فيها مجار ، فمنها تصويره لهمة سيف الدولة :

في سبيل العلى قتالك والسلم ... وهذا المقام والاجذام

واذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الاجسام

ومنها تصويره لرباطة جأشه :

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الابطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

ومن هذا النوع قوله :

وفارس الخيل من خفت فوقرها ... في الدرب والدم في اعطافه دفع

فأوحدته وما في قلبه قلق ... واغضبته وما في لفظه قذع

بالجيش تمتنع السادات كلهم ... والجيش بابن ابي الهيجاء يمتنع

ومنه مدحه لكافور :

وما كنت ممن ادرك الملك بالمنى ... ولكن بايام اشبن النواصيا

عداك تراها في البلاد مساعيا ... وانت تراها في السماء مراقيا

لبست لها كدر العجاج كأنما ... ترى غير صاف ان ترى الجو صافيا

وقدت اليها كل أجرد سابح ... يؤديك غضباناً ويثنيك راضيا

ومنه مدحه لابي شجاع :

ابو شجاع ابو الشجعان قاطبة ... هول نمته من الهيجاء اهوال

تمالك الحمد حتى ما لمفتخر ... في الحمد حاء ولا ميم ولا دال

عليه منه سرابيل مضاعفة ... وقد كفاه من الماذي سربال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غير ان الحلبة التي جلّى فيها ابو الطيب انما هي حلبة الوصف ولست اطلق هذا الوصف اطلاقاً وانما أريد به ناحية من نواحيه وهي ناحية المعارك ، حتى قال ابن الاثير في المثل السائر :

« واما ابوالطيب المتنبي فانه اراد ان يسلك مسلك ابي تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما اعطاه ، لكنه حظي في شعره بالحكَم والامثال واختص بالابداع في مواضع القتال ، وانا اقول فيه قولاً لست فيه متأثماً ولا منه متلثماً وذاك انه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من نصالها واشجع من ابطالها وقامت اقواله للسامع مقام افعالها حتى يظن ان الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا فطريقه في ذلك يضل بسالكه ويقوم يعذر تاركه ولا شك انه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما اداه عيانه » .

نعم ، هذه هي الناحية التي برّز فيها المتنبيّ فتكاد تمثل معظم عبقريته وربما كان لروحه ولطباعه الاثر الابلغ في تبريزه في وصف الحروب وادواتها فقد كان هذا النوع من الشعر لاصقاً بطبعه ممتزجاً بروحه فكان شعره فيه صورته الناطقة واريد بهذه الصورة شغفه بالحروب و نبساطه الى رؤية الدم والشاعر يبدع في المذهب الذي تأنس به نفسه .

ولقد مثّل ابوالطيب في وصف المعارك جهة من جهات عصر سيف الدولة فكأن شعره في هذا الوصف مرآة مصقولة تعكس تلك الجهة فقد حفظ لنا المتنبيّ لوحاً ناطقاً يفصح عما رسم عليه من غزوات سيف الدولة وغاراته فلم يغادر امراً من امور تلك الحروب الا وضحه حتى تجلت لنا مهابة سيف الدولة في العيون ومقادير فضله في دفع الروم عن ديار الشام ومهما وصف رجال التاريخ هذه الغزوات والغارات فلا يستطيع وصفهم ان ينطق بما نطق به شعر المتنبي المشتمل على صور شتى ، فاننا لا نشاء ان نعرف شيئاً عن جيش سيف الدولة وعن سفنه وعن مخافة الروم منه وعن شدة غزواته وعن صباغها القومي وصباغها الديني وعن تحريق منازل الروم وتخريب ديارهم الا عرفناه .

فاذا تكلم على عرض الجيش ذكر تجافيف الخيل ومفاضات الفرسان وتراكيهم وذكر الرايات والشعار والسلاح المسمم ووصف دربة الخيل فلا يغادر لوناً او شكلاً من الوان الوصف واشكاله ، فكأنما بمحضر جيش متكامل العدة مستتم التعبئة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولما عرضت الجيش كان بهاؤه على الفارس المرخي الذؤابة منهم
حواليه بحر للتجافيف مائل يسير به طود من الخيل ايهم
تساوت به الاقطار حتى كأنه يجمع اشتات البلاد وينظم
وكل فتى للحرب فوق جبينه من الضرب سطر بالأسنة معجم
يمد يديه في المفاضة ضيغم وعينيه من تحت الشريكة ارقم
كأجناسها راياتها وشعارها وما لبسته والسلاح المسمم
وادبها طول القتال وطرفه يشير اليها من بعيد فتفهم
تجاوبه فعلاً وما تسمع الوحى ويسمعها لفظاً وما يتكلم
لها في الوغى زي الفوارس فوقها فكل حصان دارع متلثم
وما ذاك بخلاً بالنفوس على القنا ولكن صدم الشر بالشر اجزم

فاذا كان لهذا الوصف طبيعة فطبيعته الدقة لان ابا الطيب لم يغفل عن ذكر ما يأخذ بمجامع القلوب في عرض الجيوش ، فالذي يستهوي الطرف في هذا العرض انما هي ملابس الخيل وملابس الفرسان وحركات الخيل والفرسان والمتنبي تكلم على هذا كله فما سها عن صغيرة او عن كبيرة وهذا النوع من الوصف الدقيق يفتقر اليه الشعر العربي .

ولكن كلامه على سفن سيف الدولة لا يعد في طبقة كلامه على الجيش فان ادوات الوصف تنقصه في هذا المذهب حتى اضطر الى استعارة ادوات الخيل فلم يبين لنا الا لوناً من الالوان في وصف السفن :

قاسمتها تل بطريق فكان لها ابطالها ولك الاطفال والحرم
تلقى بهم زبد التيار مقربة على جحافلها من نضحه رثم
دهم فوارسها ركاب ابطنها مكدودة وبقوم لا بها الألم
من الجياد التي كدت العدو بها وما لها خلق منها ولا شيم

واذا تكلم على هرب الروم هول الامر حتى نكاد نظن ان الروم ينهزمون بمرأى منا زرافات ووحدانا :

سرايا ك تترى والدمستق هارب واصحابه قتلى وامواله نهبى
اتى مرعشاً يستقرب البعد مقبلا وأدبر اذ أقبلت يستبعد القربا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كذا يترك الاعداء من يكره القنا ويقفل من كانت غنيمته رعبا
وهل رد عنه باللقاء وقوفه صدور العوالي والمطهمة القبا
مضى بعد ما ألف الرماحان ساعة كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا
ولكنه ولى وللطعن سورة اذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا
وخلى العذارى والبطاريق والقرى وشعث النصارى والقرابين والصلبا

ولقد اكثر من الاشارة الى هرب الروم فكان في كل مرة يشير فيها الى خوفهم يصور الخائفين في صوز ناطقة ، فمرة يحلمون بالخوف :

جاز الدروب الي ما خلف خرشنة وزال عنها وذاك الروع لم يزل
فكلما حملت عذراء عندهم فانما حملت بالسبي والجمل
ان كنت ترضي بان يعطوا الجزي بذلوا منها رضاك ومن للعور بالحول

ومرة يتخبطهم المس من هذا الخوف :

ومانجا من شفار البيض منفلت نجا ومنهن في احشائه فزع
يباشر الامن دهراً وهو مختبل و يشرب الخمر حولاً وهو ممتقع

هذا هو الوصف الذي انفرد به ابوالطيب فلا تجاريه فيه أقلام النظراء ففي بيتين من الشعر يعرض علينا صورة الجيش :

وجيش يثني كل طود كأنه خريق رياح واجهت غصن ارطبا
كأن نجوم الليل خافت مغاره فمدت عليها من عجاجته حجبا

وفي بيت من الشعر يصف لنا تحريق منازل الروم وتخريب ديارهم :

تسايرها النيران في كل منزل به القوم صرعى والديار طلول

وفي بيتين من الشعر يصف لنا اضطراب القساطل واختلاط المناهل بدماء الروم :

واني اهتدى هذا الرسول بأرضه وما سكنت مذ سرت فيها القساطل
ومن اي ماء كان يسقي جياده ولم تصف من مزج الدماء المناهل

ومثل هذا السحر كثير في شعر المتنبي في غزوات سيف الدولة وغاراته ولست اظن ان في شعراء العرب شاعراً يعلو ابا الطيب في هذا المذهب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما هذه الروائع كلها الى جنب قصيدته في بناء الحدث :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعرف اي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم
ظريدة دهر ساقها فرددتها ... على الدين بالخطي والدهر راغم
وكيف ترجي الروم والروس هدمها ... وذا الطعن اساس لها ودعائم
وقد حاكموها والمنايا حواكم ... فما مات مظلوم ولا عاش ظالم
أتوك يجرون الحديد كأنما ... سروا بجياد ما لهن قوائم
اذا برقوا لم تعرف البيض منهم ... ثيابهم من مثلها والعمائم
خميس بشرق الارض والغرب زحفه ... وفي أذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وأمة ... فما يفهم الحدّاث الا التراجم
فلله وقت ذوّب الغش ناره ... فلم يبق الا صارم او ضبارم
تقطّع ما لا يقطع الدرع والقنا ... وفرّ من الفرسان من لا يصادم
وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضّاح وثغرك باسم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة ... تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب اتى الهامات والنصر غائب ... وصار الى اللبات والنصر قادم
حقرت الردينيات حتى طرحتها ... وحتى كأن السيف للرمح شاتم
ومن طلب الفتح الجليل فانما ... مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم
نثرتهم فوق الاحيدب نثرة ... كما نثرت فوق العروس الدراهم
تدوس بك الخيل الوكور على الذرى ... وقد كثرت حول الوكور المطاعم
تظن فراخ الفتخ انك زرتها ... بأمّاتها وهي العتاق الصلادم
اذا زلقت مشّيتها ببطونها ... كما تتمشى في الصعيد الأراقم

فأبو الطيب شاعر العوالي والسوابق اذا وصف معركة أفاض في الكلام على الدقائق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كالكلام على سير الخيل وسير الجيش وكالكلام على حسن الثبات وقبح الهزيمة ، كالكلام على هيآت الهازم والمهزوم الى غير ذلك من الصفات التي تحتاج الى حواس قوية تعمل فيها مشاهد القتال والى خيال مديد يحيي هذه المشاهد . وقد اجتمع للمتنبيء شيء من هذا كله واذا اضفنا ما اجتمع له من قوة الحواس وامتداد الخيال ميله الى الحروب وشهوده اكثر الغزوات والغارات والفته للبدو في فاتحة امره لم نعجب من تبر يزه في هذا الميدان الذي لم يلحقه به لاحق فاذا خلد ابو الطيب فان معظم خلوده يكون من ناحية هذا الوصف فهو وسيف الدولة متلازمان في هذا الخلود فلا يذكر سيف الدولة الا ذكر معه المتنبيء ولا يذكر ابو الطيب الا ذكر معه سيف الدولة فلولا وصف المتنبي لمعارك سيف الدولة لما كان لهذه المعارك صور ناطقة ولولا معارك سيف لدولة لما كانت عبقرية المتنبي تخلد الا من ناحية واحدة وهي ناحية الحكمة ولكن خوضه معارك سيف الدولة جعل له حظاً اوفى من الخلود فاذا كان الأدب مرآة المجتمع فشعر المتنبيء مرآة غزوات سيف الدولة في بلاد الروم .

واذا كان في وصف المعارك شيء يسير يؤاخذ به المتنبيء فما هذا الشيء الا تكرار بعض الصور في هذا الوصف ، فمن هذا التكرار قوله في بعض قصائده وقد أراد ان يصف سرعة الخيل في سيرها :

قاد المقانب أقصى شربها نهل على الشكيم وادنى سيرها سرع

وهذا قريب من قوله :

وخيل يراها الركض في كل بلدة اذا عرست فيها فليس تقيل

ومن هذا النحو قوله وقد وصف همة سيف الدولة :

ولو كأت الخيل حتى لا تحمله تحملته الى اعدائه الهمم

وهذا شبيه قوله :

اكلما رمت جيشاً فانثنى هرباً نصرفت بك في آثاره الهمم

ومنه قوله وقد اشار الى تحريق منازل الروم :

عبرت نقدمهم فيه وفي بلد سكانه رمم مسكونها حمم

وهذا مثل قوله :

تسايرها النيران في كل منزل به القوم صرعى والديار طلول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لكن وحدة هذه المعاني لاتحط من قدر هذا الوصف الجليل .

ولئن مثل ابوالطيب المتنبيُ ناحية من نواحي « فتى الفتيان في حلب » فانه لم يمثل لنا النواحي كلها من عصر ملك حلب ، فلم نجد في شعر المتنبيُ مانجده في شعر البحتري من وصف قصور بني العباس ، ونعيم الخلافة وترفها ، أفكان سيف الدولة بعيداً عن مثل هذا النعيم والترف ، ام كان المتنبيُ غارقاً في الكلام على الجماجم والغلاصم وعلى القساطل والجحافل ، فشغلته دماء الروم عن الكلام على شيء من المدامة والاوتار والنغم :

ألهى الممالك عن فخر قفلت به شرب المدامة والاوتار والنغم

فلم يصل الينا شيءٌ من نعيم سيف الدولة الا هذه الصورة التي صورها لنا المتنبيُ فارانا سيف الدولة جالساً في فازة من الديباج :

عليها رياض لم تحكها سحابة وأغصان دوح لم تغن حمائمه

وفوق حواشي كل ثوب موجه من الدرّ سمط لم يثقبه ناظمه

ترى حيوان البر مصطلحاً به يحارب ضد ضده و يسالمه

اذا ضربته الريح ماج كأنه تجول مذاكيه وتضحى ضراغمه

ومن هذه الأبيات القليلة يتبين لنا ان المتنبيُ لايقصر اذا شاء عن التصاوير المشتملة على ألوان برّاقة ولكنه انصرف عن هذا النوع من الشعر الى مذهب الصق بنفسه واعلق بروحه فلم يهتم بمشاهد الطبيعة على ان ماخلّفه لنا من وصف شعب بوّان يدل على ان عبقريته قد تستهوي بها الطبيعة في بعض الاوقات فاذا استهوتها الطبيعة اوحت اليها خصائص الالوان فيطبع خياله مشاهدها بطوابع خاصة تليق بها وقد لا تليق بغيرها .

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

طبت فرساننا والخيل حتى خشيت وان كرُمن من الحران

وكيف كان الامر فان ابا الطيب لم يتوسع في هذا المذهب توسع غيره من شعراء الطبيعة وفي مقدمتهم البحتري الا ان الوصف الذي يشتمل عليه بعض شعره انما هو وصف دقيق لايخلو من روح وحياة فلما وصف الحمّى :

وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور الا في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها و باتت في عظامي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بضيق الجلد عن نفسي وعنها فتوسعه بانواع السقام
كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها باربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر اذا القاك في الكرب العظام

نفخ فيها حياة فجعل الموصوف بمنزلة شخص ناطق ، ولكن الذي وفق فيه التوفيق انما هو وصف الاسد فقد خاض في دقائق الوصف كلها فلم يغفل الاشارة الى مهابة الموصوف :

وقعت على الأردن منه بلية نضدت بها هام الرفاق تلولا
ورد اذا ورد البحيرة شاربا ورد الفرات زئيره والنيلا

ولا غفل عن الاشارة الى هيأته :

متخضب بدم الفوارس لابس في غيله من لبدتيه غيلا
ما قوبلت عيناه الا ظننتها تحت الدجى نار الفريق حلولا

ولا اهمل ذكر عيشته ومشيته :

في وحدة الرهبان الا انه لا يعرف التحريم والتحليلا
بطأ الثرى مترفقا من تيهه فكأنه آس يجس عليلا

ولا قصر في تصوير استعداده للهجوم على فريسته :

ما زال يجمع نفسه في زوره حتى حسبت العرض منه الطولا
ويدق بالصدر الحجار كأنه يبغي الى ما في الحضيض سبيلا

الى غير ذلك من أسرار الوصف التي دلت على ان ابا الطيب يستطيع اذا شاء ان يتغلغل في البواطن والظواهر فيستخرج منها اشكالا فيها حياة وشعور :

هذا شيء من الكلام اليسير على مذهب المتنبي في الوصف ، فاذا برز ابو الطيب فان نبريزه في وصف المعارك واذا خلد فانما يخلد من هذه الناحية ومن ناحية الحكمة فاذا كان المتنبي شاعر الهيجاء فانه شاعر الحكمة والمثل ، فقد بلا أخلاق الناس وامتحن الدنيا وعرض الحياة فاستنبط من هذا كله روائع الحكم وسوائر الأمثال فلا خوف على خلود عبقريته مادمنا نحتاج في كل عصر من العصور الى شكوى الدهر والدنيا والناس والى الموعظة والاعتبار والى ما يجري مجرى هذه الامور واشباهها ، لا خوف على خلود هذه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العبقرية مادامت العربية لغة كثير من الخلق ، ومادام اهل هذه اللغة يتمثلون بالابيات التي تشتمل على صور الحياة بجامعها ، كرمها ولؤمها ، وحلوها ومرها ، وعزها وذلها ، وراحتها وتعبها ، وخيرها وشرها واملها ويأسها ، فلم يخطىء ابو الطيب في قوله :

وما الدهر الا من رواة قصائدي اذ قلت شعراً اصبح الدهر منشدا

لزمنا من بعد هذا كله ان نعرف مصادر عبقرية المتنبيء ، من هم الشعراء الذين اثروا في هذه العبقرية ، ومن هم الشعراء والكتاب الذين اثرت فيهم عبقرية ابي الطيب ، وهذا باب لا أحتاج فيه الى التطويل ، فان المتقدمين من الادباء أمثال الثعالبي والجرجاني قد عقدوا الفصول الطوال في الكلام على الشعراء الذين اخذ عنهم وعلى الشعراء الذين اخذوا عنه ، فاما الذين حلوا نظمه واستعانوا بالفاظه ومعانيه هم الصاحب بن عباد وابو اسحاق الصابي والاستاذ احمد بن ابراهيم الضبي وابو بكر الخوارزمي وابو الفرج الببغاء والمهلبي الوزير والسري بن احمد وابو الفتح علي بن محمد البستي الكاتب وابو الحسن السلامي وابو القاسم الزعفراني وغيرهم . واما الذين استعان بهم المتنبي هم ابو تمام وابن الرومي والاعشى وابو نواس وعبدالله بن محمد المهلبي وموسى بن جابر الحنفي وعبد الله بن طاهر والعباس بن الأحنف والبحتري واسحاق الموصلي وابو هفان وعلي بن الجهم و يعقوب بن الربيع وبكر بن النطاح وابن المعتز وابو سعيد المخزومي وامرؤ القيس وكثير من أمثالهم فمن كان يهمه ان يعرف شيئاً من هذا لاخذ فليرجع الى الجرجاني والى الثعالبي فقد شفى كل منهما وكفى و بالغ فأوفى ، اما انا فاني على مذهب الذي يقول : إلعق العسل ولا تسل عن نحله ، فسواء علي أسرق المتنبي من الشعراء ام سرقوا منه ، ان الذي يعنيني انما هو هذا القالب الذي صب فيه المسروق ، فما أحسن ما قاله الجاحظ في هذا المعنى[1] .

والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وانما الشأن في اقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك فانما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير .

شفيق جبري

(١) الحيوان : الجزء الثالث الصفحة ٤١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net